الفلاح كيف نرقيه ؟

للأستاذ عبد الحميد ابراهيم صالح

جالت فى أمر الفلاح أقلام الكاتبين وعقول المفكرين . وأرى من واجبي كفلاح ، ميراثا ومولدا و بيئة ودراسة وعملا ، أن أعالج هذا الموضوع وأن أتحدث عن علل الفلاح وطريقة علاجها .

ويحسن بي قبل أن أخوض فى بحثى ، أن أقسم الفلاحين الى طبقتين : الأولى طبقة أصحاب الأرض الواسعة والضياع المترامية ، والثانية طبقة الأجراء الفقراء الذين يكدحون لغيرهم ، و يعملون لراحة الأثرياء المترفين .

أما الأولون وهم الأغنياء فقد أصابتهم مع الأسف أمراض اجتماعية دفعهم اليها التقليد الأعمى وحب الترف والدعة ، فهجروا قراهم نازحين الى المدن ليستمتعوا بالملذات ، و يرضوا الشهوات ، وهم بذلك يفارقون معين سعادتهم ومصدر نعمتهم ، و يدعون مواطنيهم من صغار الزراع مهملين لا مرشد لهم ولا معين ، و يظلون غافلين عن أملاكهم لا يراقبون ادارتها ولا يستطيعون حمايتها من العبث والفساد .

ولا شك أن إقامتهم فى المدن ، تكلفهم باهظ النفقات ، كما أن تركهم أمور القرية والزراعة تجرى فى أعنتها ، ينتهى الى ضعف الانتاج وتضاؤل الدخل ، ووراء ذلك ما وراءه من استدانة مرهقة وتعرض لمخاطر كثيرة واستهداف لنزع ملكيات ، ولا شك أن أثر هذا الارتباك لا يقتصر على هؤلاء الحمقى من الملاك بل يتناول ضامنيهم والمتعاملين معهم ، ثم يمتد إلى أولادهم وأعقابهم فيستقبلون الحياة فقراء بائسين حائرين ، ومن هنا نرى كيف تفسد حياة أبناء الأعيان ، وكيف ينشأ منهم شريدون ومجرمون .

وعلاج هؤلاء الأعيان الهاجرين سهل ميسور اذا استطعنا بالنصح والإرشاد أن نردهم الى ما تعودوه هم وآباؤهم وأجدادهم من التعلق بالريف وأهله ، والعناية بالحقل وشؤونه ، والاعتماد على النفس فى تسيير العمل وكسب الرزق ، والزهد فى صخب المدينة وضوضائها ومفاتنها الباهظة النفقات ، وإيثار الحياة الهادئة بين الزرع النضير ، والشجر الظليل ، والأعناب والنخيل ، وفى إيناس الأبناء والأقرباء والأصدقاء ، وفى عزوة الخدم والحشم ، وفى وجاهة الضيافة والكرم ، ووسط أسباب القوة والصحة من هواء نقى وشمس صاحية وتبكير بالنوم ومصاحبة للشمس فى إشراقها .

ذلك هو العلاج الأول للأعيان المتبرمين بقراهم .

ولا بد لهم من علاج آخر هو أن نحسن القرى ونرقيها لتكون جميلة فى أعينهم، فنوجد لهم فيها ما هم فى حاجة اليه لأنفسهم ولأولادهم ، إذ أن من أهم أسباب تشبثهم بالمدن سهولة تعلم أولادهم فى مدارسها و إمكان مراقبتهم بها خلال الدراسة، فيجب أن نكفل لهم الطمأنينة من هـذه الناحية بأن ننشئ لأولادهم وبناتهم رياض أطفال ومدارس ابتدائية وثانوية ذات أقسام داخلية فى العواصم والبنادر القريبة ، وكذلك يجب إنشاء مساكن صحية للطلبة الجامعيين حتى إذا كبر التلميذ وأراد دخول الجامعة كان ولى أمره مطمئنا الى أنه يسكن مع زملائه سكنا صحيا صالحا مريحا ، والى أنه محوط بمراقبة دقيقة مخلصة تصون خلقه ودراسته وجسمه ، وكذلك يجب أن توجد بجانب المدارس الإقليمية فى القرى والحواضر مستشفيات كاملة العـدة من أشعة وتحليل كيماوى وغير ذلك ، مع وجود الأطباء الاخصائيين فى كل فروع الطب الحديث ، حتى يكون الأعيان آمنين على مستقبل أبنائهم ، وعلى صحتهم وصحة أسرهم ، ويكون الريف كامل الأهبة لخدمة الأهلين .

وينبغى — إتماما لهـذا البرنامج — أن يراعى فى الترشيح للرتب والأوسمة مبلغ مواظبة الوجيه على قريته واهتمامه بها ومقدار عنايته بزراعته وجده فى خدمتها، وما بذل الوجيه أو العين من ماله ومن جهوده لإقامة المنشآت التى ترقى الريف وتحسن حاله . ولنفرض ضريبة على الأعيان الذين بقوا هاجرين قراهم بعد كل هذه التدابير والمرغبات ، ولتنفق هذه الضريبة فى تجميل القرية التى حرمها هؤلاء من المساهمة فى خدمتها .

ولنتكلم عن الطائفة الثانية من الفلاحين ، طائفة الأجراء الفقراء، وهى السواد الأعظم، واليها تتجه أنظار المصلحين والباحثين ، وهى بيت القصيد فى كل ما نقرأ ونسمع من بحوث ومحاضرات عنوانها " الفلاح " .

لقد أشرنا الى أثر هذا الفلاح فى تكوين الثروة و إنمائها ، ويجب أن ننوه بمـا يمتاز به فلاحنا المصرى من وداعة وصبر وقناعة .

فاذا شئنا أن نخدمه مخلصين، وأن نزيح عنه كابوس البؤس والحرمان فلا بد من أن نعنى قبل كل شىء بجسمه الذى هو كل ثروته ، فنضمن له العافية ونؤمنه من الأسقام ، وذلك بأن نكوّن الوحدات الصحية التى تحارب الأمراض وتصون الأجسام وتحفظها سليمة قادرة على العمـل والإنتاج ، ولا أعنى العمل فى الزراعة وحدها وهى مصـدر الرزق الأول لأبناء هذه البـلاد ، بل أعنى أيضا العمـل فى الجيش إذ الجيش انما يتكون من أولئك الفلاحين فهم الذين نعتمد عليهم فى الذود عن حياض الوطن ، كما أنهم هم الذين تتألف منهم قوى البوليس والحراس النظاميين الذين يسهرون على الأمن و يسألون عن حماية الأموال والأعراض والأرواح .

ومن أخص ما تعنى به هذه الوحدات الصحية ، أو الاجتماعية ، مراقبة الأماكن العامة كالمساجد والمدارس ، حتى لا تغزوها الأوبئة السريعة الانتشار ، كما تدخل فى نطاق عملها المحافظة على نظافة القرية ، ونفى مايتخللها ويحيط بها من أقذار ، وما تنشره المستنقعات وأكوام التراب من آفات ، ثم تعويد الفلاحين على شىء من النظام فى حياتهم ، فإن فوضى السكن والنوم والملبس والمأكل متحكمة فيهم من قديم الزمان ، ويكفى أن أكوام الحطب التى توضع على الأسطح هى أهم سبب للحرائق المدمرة ، كما أن روث البهائم الراقدة بجانب الفلاح أو فى فناء داره هو من مسببات الحميات المختلفة ، وفى شربه الماء العكر ، وفى عرى رأسه وقدميه مايسهل إصابته بالبلهارسيا والانكلستوما والروماتزم وغيرها من الأمراض القاتلة . ولو استخدم " الزير " المصنوع من الفخار والذى لا يكلفه غير قرش أو قرشين ، ولو وضع على رأسه غطاء يقيه الحر والبرد ، وحمى قدميه من الوحل ومن الهوام ومن قطع الزجاج المبعثرة على الأرض لما أصيب بأمراض ولا جروح .

ولو استطاع أن يغطى جسمه هو وزوجته وأولاده عند النوم بغطاء نظيف مدفئ لما فتك به البرد القارس .

سيقول قائل : أنى للفلاح أن يؤدى لنفسه ولأولاده كل هذه المطالب وهو ضئيل الأجر محدود الرزق ؟ فنقول إن كثيرا من فلاحينا لا ينفقون أجرهم القليل فى ضروريات الحياة من مأكل وملبس ، بل يصرفون أكثر هذا الأجر فى الكيوف والمخدرات ، كالشاى والقهوة والدخان وما إليها ، ولا يبقى بعد ذلك شىء يذكر ، فطبيعى أن يجوع ويعرى هو وزوجته وأولاده ، فما أحوجه الى النصح الاجتماعى والوعظ الدينى لينتهى عن هذا السفه ، ولا يؤذى أولاده بهذا العبث برزقه ، ولا يضعف جسمه بما يسلط عليه من كيوف مضرة وما يكلفه من جوع منهك ، ولو أنه أبقى على جسمه واحتفظ بقوته لأعمال الحقل لأخرج محصولا أوفر وهيأ للمالك دخلا أكبر ، فأعانه على أن يضاعف له الأجر ويزداد برا به واهتماما .

قد رأيت أن الفلاح من جانبه يعمل على إفقار نفسه بما ذكرنا من سوء تصرفه ، ولكن لفقره وضآلة أجره أسبابا أخرى ككثرة الأيدى العاملة ، وسهولة الاقتراض والتداين وما وراء هذه السهولة من اغراء له بالمضى فيما هو فيه من سفه وانفاق بغير حساب ، والدائن اذا حلت ساعة الحساب لم يرحم ولم يبق على شىء مما يملكه الفلاح المسكين أرضا كان أو أثاثا أو متاعا أو حليا أو غير ذلك فيضاعف ما يتاميه من ضنك وضيق وشقاء ، ومن حسن الحظ أن الحكومة عنيت بسن قانون يحمى هؤلاء من قسوة الدائنين .

ولو أن الحكومة عنيت بإصلاح الاراضى البور وتوزيعها على الفلاحين لتوفر العمل والأجر الحسن لكل الأيدى العاملة ، ونظمت عملية الاقتراض بطرق رفيقة تبقى على ضروريات الفلاح .

ومن أحسن وألزم ما يفرج عن فلاحينا هـذا الكرب ، أن تنشأ لهم نقابات على مثال نقابات العمال الآخرين تدافع عن حقوقهم وتعمل على رفع مستواهم وتجمع بعض الأموال فى صناديقها لتعين من نكبه الزمن ومن أقعده عن الكسب هرم أومرض، وتتكون أموال هذه الصناديق بما يدفعه الفلاح بنسبة معينة من أجره اليومى إن كان أجيرا ، أو من إيراده أن كان ممن يزرعون أو يستأجرون، مضافا الى هذا وذاك نصيب من الزكاة (ولا بأس من أن تكون هذه الزكاة جبرية كما اقترح صاحب السعادة الدكتور حافظ عفيفى باشا) وإعانة من الحكومة بحسب أهمية كل نقابة ، وبذلك تستطيع هـذه النقابات أن تعين من صندوقها العامل العاطل مدة عطله ، وأن تدبر له عملا بعد ذلك، وأن تواسى من مرض من أعضائها أو تقوم برعاية أطفال توفى عائلهم ولم يترك لهم شيئا ، وهكذا يكون ذلك الفلاح المتبع قد ظفر بالأمان على حياته ، وبالعدة لغدرات الزمان .

وتستطيع هذه النقابات استئجار بعض الأطباء لعمل عيادات فى القرى التى ليست بها مستشفيات حكومية ، فيتداوى الفلاحون وأسرهم بغير مقابل أو بأجر زهيد .

*
* *

هنالك ناحية اجتماعية ذات أهمية وخطر ، لا مفر من الالتفات اليها كلما تناولنا بالبحث شؤون الفلاح .

ذلك أن فلاحنا فى أميته ووداعته وعدم اهتمامه من الحياة بشىء سوى الفراغ الضيق الذى يعيش فيه ، وعدم درايتـه بأحوال الأمم وتطورات العالم ، لايزال قانعا بما هو فيه ، قليل الشكاية ، هادئا مستكينا الى بؤسه وشقائه ، لكننا أخذنا فى نهضتنا الجديدة نعلمه ونبصره بالحياة ، بجعلنا تعليم أولاده إلزاميا، وأخذنا نكشف له عن حقائق الوجود وحقوق الانسان وواجباته، وصار يتلقى مختلف التعاليم فيما يسمع من إذاعات بالراديو، ومن خطب فى الحفلات العامة ، وفيما تبثـه الصحف والمجلات بين الأوساط الريفيـه من أفكار وأخبار ، فاذا نشأ الجيل الجديد من الفلاحين متعلما بصيرا بحقوقه، وأخذ يجأر بالشكوى من بؤسه وحرمانه ، ويطالبنا بنصيبه مما ينتج للبلاد من مال كثير ، ومما يهيئه للملاك والأعيان من أسباب النعيم فما أجسم المشكلة التى يواجهها يومئذ مجتمعنا المصرى الهادئ الآمن ، وما أعسر رد الفلاح إلى الصبر والقناعة والطاعة العمياء ، التى تعوّدها طوال الأحقاب ، وما أوجب تدارك الأمر من الآن والأخذ فى إنصاف الفلاح دون إبطاء ولا إرجاء، حتى اذا مازالت غشاوة الجهل وفتح العلم عينيه وانتبه الفلاح الى أمر نفسه وأمر أمثاله فى الأمم المتحضرة وجد نفسـه على حال ترضيه ، ولا تدعوه الى تذمر أو شكاية ، ونكون قد حمينا المجتمع المصرى من هذا المشكل الجسيم .

وما دمنا قد ذكرنا تعليم الفلاح فانى أحيي الجهد الذى تبذله وزارة المعارف فى تعليم الفلاحين ونشر المدارس بينهم ، والجهد الذى تبذله وزارة الشؤون الاجتماعية فى تثقيفهم وتنوير أذهانهم ، وأقترح على وزارة المعارف أن تأخذ بالرأى السديد الذى يقول بجعل التعليم (إقليميا) أى متمشيا مع لون الإقليم وعاداته ، ومشجعا للصناعات والمهن السائدة فيه .

بذلك — أى بنشر التعليم والثقافة — نهدم الجهل المخيم على الفلاحين ، وهو أصل ما هم فيه من بلاء وما فى نفوس الكثيرين منهم من فساد أو من نزوع الى الإجرام .

وإذ كنت أعرف أثر الدين فى تهذيب نفوس الفلاحين وعقولهم ونهيهم عن البغى والمنكر فانى أرى أن طائفة مأذونى الشرع لو اختيرت اختيارا حسنا ، من بين علماء الأزهر المستكملين العلم ، والخلق ، ووفرة الاطلاع ، وجعلت لهؤلاء العلماء بجانب ما يتقاضون على عقود الزواج ، مكافآت مكملة لمطالبهم لكانت من أحسن العوامل فى إصلاح حال الفلاحين ، فان هذا " المأذون " يمكن الانتفاع به لا فى عقد الزواج وإثبات الطلاق وحسب ، بل فى إرشاد الناس ووعظهم ، ولا شك أن صفته الدينية تكسبه احتراما وطاعة خصوصا وهو بحكم عمله خبير بأسرار البيوت ملم بعلاقات الأسر وأحوال الناس .

ومن أنجع الوسائل للتثقيف وتنوير الأذهان ، أن تغذى الحكومة القرى بأجهزة راديو يستمع منها الفلاحون إلى ما يخصص لهم من إذاعات دينية وزراعية واجتماعية ، ما دام انتشار الصحافة محدودا فى هذه النواحى ، وأن تكون هناك فرق طوافة بالسيارات تحمل أدوات لإذاعة التعاليم والنصائح الحكومية الاجتماعية والصحية ، وأفلاما تصور لهم الآفات البدنية أو الزراعية وطرق علاجها ، ولا بأس بروايات قصيرة تمثل لهم صورا من مآسى الحياة أو مواعظها ؛ تصحبها فى بعض الأحيان موسيقى أو غناء ، حتى تكون للفلاحين فى الوقت نفسه تسلية بريئة محبوبة فى خلال هذا الارشاد .

وهذا الارشاد الذى نطلبه من الحكومة ، لا نطلبه من الوزير وحده ، ولا من رسل الدواوين المخصصين لهذه المهمة وحدهم ، بل نراه واجبا على سائر الموظفين الذين تربطهم أعمالهم بالفلاحين . فلتكن للمدير والمأمور والمهندس والطبيب والمدرس وغيرهم محاضرات دورية على الفلاحين ، كل فيما يسمه عمله واختصاصه ، هذا فى الأمن ، وذاك فى الرى ، وذاك فى الطب وذاك فى الزراعة ، وهكذا . نريد برا شاملا بالفلاح ، وتعاونا كاملا على الاصلاح ، نريد جهدا مشتركا يساهم فيه كل مصرى حاكما كان أو محكوما ، صغيرا أو كبيرا ، وليس أنجح من جهد يتعاون عليه المخلصون ، ويتنافس فيه المتنافسون .

عبد الحميد إبراهيم صالح